

# الفصل الأول

## المراهقة؟

قد يبدو لفظ « المراهقة » « Adolescence » لأول وهلة واضح المعنى ، وفي غير حاجة إلى تفسير . فالأصل اللاتيني المشتق منه هذا اللفظ في اللغة الإنجليزية لا يعني أكثر من أن الفرد « ينمو حتى يبلغ رشده » . وكلنا يعلم أن ما يحدث للطفل منذ أن كان جنيناً إلى أن يصبح رجلاً أو امرأة هو أنه يجتاز مرحلة من نمو تفضي به إلى الرشد . وما دام الأمر كذلك فما الداعي إذن لكتابة كتاب كامل عن موضوع يعرفه جميع الناس ؟

ولو صح أن الموضوع واضح المعالم بهذه الصورة ، فلن تكون ثمة حاجة عندئذ إلى إضاعة جانب كبير من وقت طلبة علم النفس التربوي في مناقشته وتفصيله . ولكن هل الأمر حقيقة على هذه الدرجة من البساطة ؟ لننعم أولاً نظرننا قليلاً في هذه العبارة : « الفرد ينمو حتى يبلغ رشده » . فما الطفل وما الراشد ؟ إنه لأمر شاق حقيقة أن نحاول وضع قائمة بالفروق بين الاثنين ، فقد يكون من اليسير أن يفكر المرء في هذه

الفروق ، ولكن من العسير أن يحدد المهم منها وما يدل عليه ، إذ لا يكاد الباحث الأمين يبدأ هذه المحاولة حتى يجد نفسه وقد سقط في يده ، وغلب على أمره ، ولكنه مع ذلك لن يكون الخاسر ، لأن ما يتبدى له من جهله سوف يهديه إلى النقطة التي ينبغى عليه أن يبدأ منها بحثه ، وعندئذ سيجد نفسه في موقف يتيح له أن يفكر بعناية فيما يتضمنه لفظ « النمو » من معنى عميق . فهو يتساءل : ما طبيعة عملية النمو ؟ وأى نوع من النمو يجعل من البنت امرأة ، ومن الغلام رجلاً ؟

وهنا أيضاً ينبغى عليه أن يقر بجهله ، حتى يكون موقفه موقف الرجل الذي لا يعرف وأن يعرف أنه لا يعرف ، أو الرجل الذي يقول كما يقول المثل العربي « أن شعوره بجهله قد أيقظ عقله ، وأعدده لأن يتعلم » . ولقد كان معظم من كتبوا عن المراهقة من علماء النفس الإنجليز أو الأمريكيين ، الأمر الذي جعل معرفة اللغة الإنجليزية ضرورة للإلمام بما كتبه . كما أن ما كتب في هذا الموضوع كان مبنياً على ما أجرى من تجارب على اليافعين في إنجلترا وأمريكا . ولكن من المأمول أن يتاح للعالم العربي في مدى سنوات قليلة أن يتناول هذا البحث نفر من الباحثين المدربين الذين يستطيعون دراسة نمو الأطفال الشرقيين ، مما سيعين دون شك على توسيع دائرة علمنا بمشكلة النمو . ولن نتكلم الآن عن كيفية تأثير عملية النمو بشتى العوامل الاجتماعية والثقافية ، فإنه مما لا شك فيه أن إلمامنا بالحقائق الخاصة بنمو الأطفال في البلاد العربية والهندية ، سوف يجعل ما نعرفه عن النمو

أكثر دقة ووضوحاً مما إذا اكتفينا بنتائج الدراسات التي أجريت على الأطفال الإنجليز والأمريكيين .

وقد اعتاد أحد كتاب التربية في بريطانيا أن يتحدث عن الأطفال ، ويصفهم « بصغار الرجال » . ومثل هذا الرأي شائع مألوف ، لأننا إذا سألنا الكثيرين عما يكون الصبي في نظرم أجابوا دون تردد : « إن الصبي رجل صغير » . فهل هذا الرأي صحيح ؟ وما معناه ؟ أترأه يعني أننا لو استطعنا وضع الصبي تحت عدسة مجهر ضخم لتبدي لنا رجلاً ؟ لا شك في أن هذا خطأ بئس . أم ترأه يعني أن الطفل يملك كل ما للرجل بشكل أقل نضوجاً ؟ قد يكون هذا أقرب إلى الصواب ، وهو ما عبر عنه أحد الشعراء الإنجليز بقوله :

« إننا لسنا سوى أطفال كبار » .

إن الكثيرين ممن يقرءون هذا قراءة سطحية سوف لا يترددون في الاقتناع بوجهته ، إذ ليس ثمة شك في أن عدداً كبيراً من الرجال والنساء يسلكون في كثير من الأحيان مسلك صغار الأطفال . ومع ذلك فإن الدقة العلمية تقتضينا ألا نقبل أى رأى مجرد أنه معقول ، بل لا بد قبل كل شيء أن نخضع الحقائق للبحث والتمحيص . وإن قليلاً من التفكير المتمعن في هذه الجملة التي أوردناها يكشف لنا عن مدى الخطأ الذي وقع فيه الشاعر ، فإن النمو ليس مجرد كبر الحجم .

ولكى نوضح معنى هذا القول نطلب إلى القارىء أن يقوم بزيارة

أحد المتاجر الكبيرة في لندن أو القاهرة أو الإسكندرية ، وأن يتفقد مختلف أقسامها ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى متجر صغير . فقد دلت الدراسة في كثير من الحالات على أن المتجر الكبير كان في الأصل حانوتاً صغيراً ، ولكنه لم يكبر من حيث الحجم فحسب ، أى أن نموه لم يكن مقصوراً فقط على ازدياد مساحته وعدد نوافذه وأبوابه ، وكبر موائد البيع فيه ، وكثرة بضائعه ، وتضاعف عدد عماله ، ولكنه شمل أيضاً وجود كميات جديدة من البضائع لم تكن به من قبل . كما أن زيادة كميات البضائع اضطرت إدارة المتجر إلى تنظيمه بشكل لم يكن من قبل ضرورياً في الحانوت الصغير ، إذ قسم إلى أقسام يصلح كل منها لأن يكون متجراً قائماً بذاته يختص بنوع معين من البضائع ، وله مديره الخاص . فليست هناك إذن زيادة في مقدار كل شيء ، فحسب ، واتساع في المكان ، ولكن هناك أيضاً تنظيم داخلي ضروري لضمان حسن سير العمل الذي لا بد منه لنجاح التجارة . فنمو الحجم مضافاً إليه التنظيم الداخلي الملائم قد مكن المتجر الكبير من أداء قدر من الخدمات يفوق ما يستطيعه عدد كبير من المتاجر الصغيرة . وبذلك كان المتجر الكبيراً أكثر قوة وأوفر ربحاً من أية مجموعة من الحوانيت الصغيرة . ولسنا نغنى فقط أن متجراً أكبر بمقدار خمسين مرة من الحانوت الصغير يجعل في استطاعته أن يربح أكثر مما يربحه خمسون حانوتاً صغيراً ، ولكن أهم ما نغنيه هو أن في وسع المتجر الكبير أن يؤدي من العمل ما لا يستطيعه أى عدد من المتاجر الصغيرة .

وشبه بهذا ما يحدث للكائنات الحية عندما تنمو ، فإن هذه الكائنات لا تكبر حجماً فحسب ، بل يحدث فيها تنظيم داخلي يجعل في مقدورها القيام بوظائف جديدة . فالرجل الذي يكون في حجم ثمانية أطفال لا يستطيع فقط أن يعمل ثمانية أمثال ما يقدر أحدهم على عمله ، بل إنه يستطيع أيضاً أن يعمل ما لا يقدر عليه مائة منهم . فهو ليس أضخم جرمًا وأشد قوة من ثمانية منهم فقط ، ولكن أجهزته الداخلية أيضاً قد أصابت من التنظيم ما يمكنه من أداء أعمال ليست في مقدور أحد منهم .

والتفكير في الموضوع بهذه الطريقة يجعل في وسعنا أن نكون فكرة صحيحة عن النمو . فالنمو عملية تتضمن بجانب كبر الحجم تنظيمًا مستمرًا كذلك . ولكن ينبغي علينا أن ندرك أيضاً أن هذه العملية في مجموعها ليست رتيبة منتظمة ، بل إنها تتم على مراحل معينة .

ويوضح التشبيه الذي ذكرناه هذا الرأي أيضاً . فإذا فرضنا أن صاحب الحانوت الصغير ظل زمنًا يتجر في مجموعة متنوعة من البضائع ، فإنه سيجد نفسه مضطراً بعد حين إلى زيادة كمية بضائعه ، وهذا يعني اتساع نطاق عمله ، ويستمر الحال على هذا المنوال ، فيزيد التاجر من مخزون بضاعته حتى يكتظ بها حانوته ، ثم إن زيادة كميات البضائع ، وعدد العملاء ، وضيق المكان ، خليقة بأن تفضي إلى اضطراب في العمل ، وارتباك في حركة التعامل ، مما يضطر الرجل بعد برهة من الزمن إلى استئجار الحانوت المجاور ، وإزالة الحواجز ، واستخدام مساعد يعينه في عمله .

وتنجح الخطة الجديدة ، فيزول ما أصاب العمل من اضطراب ، وعندئذ يقول الرجل لنفسه : « أعتقد أن ازدياد عدد العملاء بهذا الشكل يجعلني في حاجة إلى إضافة أنواع جديدة من البضائع لبيعها لهم » ، فإذا كانت تجارته حتى الآن مقصورة على بيع أنواع الأقمشة فقط ، فإنه قد يبدأ في الاتجار بالأحذية وما إليها أيضا .

ولسنا في حاجة لتفصيل ما قد يصيب تجارة الرجل من ازدهار ورواج ، فإن ازدياد المبيعات قد يفضي مرة أخرى إلى حالة من الاضطراب والفوضى ، وعندئذ يجد نفسه في حاجة إلى حانوت ثالث يضمه إلى حانوته ، ثم إلى أنواع جديدة من البضائع زيادة على الأقمشة والأحذية ، وهكذا حتى ينتهي به الأمر إلى وضع الخطط لمواجهة التطورات المنتظرة ، فيستعين بالمهندسين والمقاولين في إقامة بناء خاص يناسب حالته التجارية ، وما يتوقعه لها من نمو . وهكذا نستطيع أن نتصوره وقد أصبح تاجراً كبيراً ناجحاً ، يعود بنا كرتة إلى الوراء فيقول : « لقد تم النمو في تجارتي في سلسلة من المراحل بدأت بفتح الحانوت الصغير ، ثم إضافة الحانوت المجاور ، وجعل الاثنين متجراً واحداً ، وأعقب ذلك بيع الأحذية إلى جوار الأقمشة ، ثم مرحلة ضم الحانوت الثالث ، وبيع ملابس الرجال أيضا ؛ وأخيراً جاءت مرحلة بناء متجركى الكبير وما يضمه من مختلف الأقسام لبيع ملابس السيدات والرجال ، والأقمشة ، والأحذية ، والمواد الغذائية ، والكتب ، وأدوات الكتابة ، والأدوات المنزلية » .

هذا المثال لا يوضح لنا كيف يتم النمو في مراحل فحسب ، وإنما يوضح أيضاً خصائص هذه المراحل . فهناك نمو في الحجم ، وهذا يستلزم إعادة التنظيم الذي تعقبه مرحلة نمو أخرى تتطلب بدورها تنظيمًا جديدًا وهكذا . فالحاجة إلى إعادة التنظيم تتولد عن الاضطراب والفوضى . ولذلك نستطيع أن نتكلم عن مراحل للنمو ، تفصل كل منها عن سابقتها فترات انتقال ، تبدأ بحالة من الاضطراب ، وتنتهي بإعادة التنظيم الذي يستغل فيه مزايا المرحلة السابقة ، ويمهد السبيل لمراحل لاحقة .

وتمثل هذا نجد أن نمو الكائنات الحية يتم على مراحل . وهذا رأى أجمع العلماء عليه ، وإن اختلفوا فيما بينهم على عدد المراحل ، أو على الأعمار التي يحدث فيها الانتقال من مرحلة إلى أخرى وقد تكلم شكسبير في مسرحية « كاهنواه » عن سبع مراحل إذ قال :

« يمثل الرجل في حياته أدواراً كثيرة ، تقع في فصول سبعة من الأعمار . فهو يبدأ رضيعاً يموء ويتلوى بين ذراعي مربيته ثم يكون تلميذاً كثير الجلبة والصياح ، يأخذ طريقه إلى المدرسة برما ضجراً متباطئاً كالقوقعة ، بوجهه الصبوح المشرق وحافظة كتبه الجلدية . ثم نراه بعد ذلك عاشقاً تتصاعد منه الزفرات لائحة كأنفاس التنور ، يقرض الشعر الحزين الذي يتغزل فيه بحواجب حبيبته . ثم يكون جندياً مسرفاً في القسم بأغلظ الايمان ، ملتجياً كالفهد ، غيوراً على الشرف ، سباقاً إلى اقتحام المعارك سعياً وراء الصيت الأجوف ، حتى ولو كان من أفواه المدافع . بعد

فلك نراه قاضياً منتفخ البطن ، ذا قنسوة مزر كشة ، وعيون نفاذة قاسية ،  
ولحية مشدبة ، ورأس حافل بقديم الحكم وحديث الأمثال . ويظل يلعب  
هذا الدور حتى ينتقل إلى المرحلة السادسة من حياته حيث يكون كأنه خرج ،  
يعلو أنه منظاره ، وإلى جواره كيس تبغه ، وقد كست أقدامه الضامرة  
جواربه القديمة الصغيرة ، وأصبح العالم مترامى الأطراف أمام ساقيه  
المتخافتين ، ويدب الوهن إلى صوته الذي كان من قبل ممتازاً قوياً ،  
فيصبح شبيهاً بصغير الصغار . ثم ينتهي هذا التاريخ العجيب بطفولة ثانية ،  
ونسيان ، فلا أسنان ، ولا بصر ، ولا ذوق ، ولا شيء على الإطلاق . «<sup>(١)</sup>  
فهذه « الأعمار » التي ذكرها شكسبير هي « المراحل » التي  
نتحدث عنها ؟ سأترك هذا السؤال معلقاً في الوقت الحاضر .

حدث منذ عدة سنوات أن واحدة من أمهات المجلات الانجليزية  
اعتادت تخصيص قسم فيها بعنوان « فترات مختلفة في حياة العطاء » ،  
كانت تنشر فيه مجموعات من صور مشاهير الرجال والنساء . فكنت ترى  
إحدى هذه المجموعات مكونة من صور مختلفة تمثل الشخص في ستة الأشهر  
الأولى من عمره ، ثم في عامه الحادى عشر ، ثم في سن العشرين . وتأتى  
بعد ذلك بخمس أو ست صور له فيما بين سن الثلاثين ، والرابعة والثلاثين ،  
ثم أخرى وهو فى الخامسة والأربعين ، فالحسين ، فالستين . ثم صورة له  
فى كل عام بعد ذلك حتى الثامنة والستين . وكانت كل واحدة من هذه

(1) W. Shakespeare : " As You Like It " Act II, Sc. vii.

الصور تختلف بطبيعة الحال ، في قليل أو كثير ، عن الصور التي قبلها والتي بعدها ، ومع ذلك فإن الصدفة كانت تلعب دوراً كبيراً في انتقاء تلك المجموعات ، ولذلك لا يمكن القول بأن للأعمار التي تمثلها أية دلالة حقيقية بالنسبة إلى نمو الشخص .

ولكن الصورة التي رسمها لنا شكسبير لم تكن من وحى المصادفات وهنا ينبغي أن نذكر أن هذه الصورة قد جاءت في مسرحية ، وأن شكسبير كان ينظر إلى الشخص الذي يصفه بعين الممثل أو مؤلف التمثيلية ، لا بعين الجراح أو عالم النفس أو رجل التربية ؛ ولذلك أبرز من خصائص مراحل النمو ناحية تتصل بالزى والحركة والحديث ، فعنى بتصوير ما يرتديه الشخص الذي أتى على وصف تطور حياته ، ونوع حركاته ، وأسلوب كلامه وذلك في كل فترة من فترات حياته ، وهي حياة الرجل الإنجليزي المهدب في العصر التيودوري ، لأن أطفال الطبقة العاملة لم يكونوا في ذلك الحين يذهبون إلى المدرسة متأطنين حافظات كتبهم ، كما أنهم لم يكونوا يملكون من الوقت ما يستطيعون إنفاقه في قرض «الشعر الحزين» ، وكانوا يتخذون من الانتظام في سلك الجندية وسيلة للرزق وكسب العيش ، لا لاقتناص «الصيت الأجوف» . كذلك لم يكن القضاة يختارون من عامة الشعب ، بل من طبقة ملاك الأراضي . ولهذا كله لا يجدر بنا أن نتوقع أن تكون «الأعمار السبعة» التي عرضها شكسبير صورة صادقة لنمو الأطفال العاديين ، وإن شكسبير نفسه لم يقصد بها أن تكون كذلك . ولو أردنا أن نخضعها

للفحص والاختبار لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن كاتب المسرحيات لا يستطيع أن يبسط الحقائق كما يبسطها العالم أو الرياضي أو الفيلسوف ، وذلك لاختلاف طريقة كل منهم عن طريقة الآخر .

وقد جعل شكسبير الحياة تبدأ بمرحلة طفولة وتنتهي بمرحلة طفولة أخرى ، وبين هاتين الطفولتين تبلغ الحياة ذروة النمو ، ثم يصبها الانحلال ويمثل الجندي المرحلة الوسطى منها ، فهو الرجل العملي الذي بلغت قواه الجسدية غاية الاكتمال . أما حياة القاضي فتصور لنا اضمحلال هذه القوى الجسدية ، إذ يصبح رجل الفكر والحكم الذي يستخدم خبراته في توجيه حياة الآخرين . ثم يعقب ذلك فترة تعود فيها خصائص التلميذ إلى الظهور إلى درجة ما ، مما يوحى بحلول النكوص محل التقدم . وأخيراً يعرض لنا شكسبير صورة من الضعف والتواكل هي « الطفولة الثانية » أو النكوص إلى حياة المهد . ويمكن التمثيل لذلك جميعه بالشكل الآتي :

( ٤ )

## الجندي

وهو الرجل المكتمل النمو ، المعتز بذاته ،  
الميل إلى العدوان ، الجهم الحيوية والنشاط  
ذو النزعة العملية ، السريع إلى الحسم والتنفيذ

( ٥ )

## القاضي

وهو ذو الخبرة الناضجة ، الذي يستطيع  
تطبيق ثمار خبراته وعلمه على مواقف  
الحياة ، ولكنه لم يعد قدرا على بذل  
المجهود الجسمي الكبير .

( ٦ )

## المضحك

وهو النطوي على نفسه ، الذي يحتاج  
في حياته إلى عون الآخرين وما هم ،  
وينزع إلى النكوص إلى حالة التواكل  
التي تتميز الضفوة المبكرة .

( ٧ )

## الهرم

وهو الذي لا يستطيع الاستقلال بنفسه

( ٣ )

## العاشق

ويغيب على تفكيره اخیال العاشق

( ٢ )

## التلميذ

وهو طالب العلم

( ١ )

## الرضيع

وهو الذي لا يستطيع الاستقلال بنفسه

من هذا نرى أن الشكل يمثل نظرة واضحة إلى حياة الإنسان ، ويبقى علينا بعد ذلك أن ننظر فيما إذا كان من المستطاع أن نكلم ما فيه من نقص حتى يقبله علماء النفس والمربون على أنه صورة صادقة لناحية من علم الإنسان إن شكسبير يصور لنا اليافع أثناء انتقاله من الحداثة إلى الرجولة في صورة « العاشق » الذي يعبر عما يختلج في أعماق نفسه من اضطرابات وجدانية بالزفرات وقرض الشعر الذي يتغزل فيه بحمال فتاته . ولاشك أن مؤلفي المسرحيات والشعراء القصصيين يهتمون أشد الاهتمام بالفتى الذي يقع أثناء تقدمه الحثيث نحو الرجولة الناضجة في هوى فتاة لم يستطع الحصول عليها لنفسه لعدم اكترائها به ، أو لظروف أخرى . فروميو ، وتروبلس وهاملت ، وأورلاندو صور للشباب العاشق في مسرحيات شكسبير ، وهم في الوقت نفسه أشد العشاق صباية ووجداء ، أما أنطونيو وعطيل فهما أكبر سنًا ، وأكثر نضجًا ، ولذلك نراهما يجمعان بين « الجندي » و « العاشق » فهما من الرجال العمليين الذين لا يقنعون بمجرد إرسال الزفرات ، وقرض الشعر الحزين .

فهذا التمنى الذي لا يتم التعبير عنه بالعمل العنيف الحاسم ، بل في الفكر والخيال ، هو الذي يميز اليافع الذي يصفه شكسبير في مسرحياته ، إذ نراه لا يحاول أن يخطف معشوقته من بيت أبيها العنيد كما يفعل عطيل ولورنزو ، أو يفتح بحد سيفه إمبراطورية من أجل المرأة التي يحبها كما يفعل أنطونيو .

هذا اليافع ، أو « العاشق » في روايات شكسبير هو الذى ينبغى أن يكون موضع اهتمامنا لأنه هو « المراهق » أى الكائن الحى الناشئ الذى بدأ يخلف الحداثة ورائه فى طريقه إلى الرجولة والاكتمال . فهو ليس مجرد « عاشق » كما أنه لا ينفق كل حياته فى إرسال الزفرات وقرض الشعر ، ولا يعيش فى عالم لا يضم سواه هو وفتاة أحلامه ، لأن أمامه مهام أخرى لا بد له من النهوض بأعبائها ، إذ عليه أن يعيش فى الحاضر ، وأن يعد نفسه للمستقبل . وهكذا تصبح الصورة التى رسمها له الكاتب المسرحى ناقصة ، ولا بد من تكميلها قبل ان يرضى عنها العلماء ويقنع بفائدتها المربون .

وقد رأينا أثناء تفصيل نمو الحانوت الصغير حتى غدا متجراً كبيراً أن كل فترة من التقدم المنتظم كانت مسبوقه بحالة اضطراب يعقبها تنظيم جديد وكثيراً ما يضطر المتجر إلى إغلاق أبوابه أثناء ذلك ، وهذا ما تشير إليه تلك اللافتات التى تعلق على واجهة المتاجر فى مثل هذه الظروف معلنة العملاء بأن « المحل مغلق مؤقتاً لإعادة تنظيمه » . ونلاحظ حدوث ما يشبه ذلك عند بعض الحيوان . فالفراشة تبدأ حياتها على شكل دودة تنمو نمواً مستمراً وهى لا تشبه الفراشة فى شىء ، لا فى نوع الغذاء ، أو عادات العيش ، أو أسلوب الحركة والسلوك . وبعد قليل نراها تلجأ إلى مكان هادى غير مطروق حيث تقيم فى أمان وسكون ، وتكسو نفسها بشرقة قوية البنيان ثم تسكن حركتها ويفتر نشاطها مدة من الزمن . وفى داخل الشرنقة يطرأ

على هذا الكائن الحى تغيرات كبيرة ، حتى أن الكثيرين يعجزون عن إدراك وجود أية علاقة بين الودودة التى دخلت الشرنقة والفراشة التى خرجت منها ، فقد اختفى الفكَّان القويان اللذان كانا يساعدان الودودة على التهام الحشائش بنهم وشراسة ، وحل محلها خرطوم رفيع تمتص به الفراشة غذاءها من رحيق الأزهار . كذلك تعتمد الفراشة فى انتقالها من مكان إلى آخر على أجنحتها الناعمة السريعة الحركة . وهكذا يرى الناظر إلى الفراشة اختلافات كبيرة بين الودودة الزاحفة وهذا الطائر الرقيق الذى يشبه أوراق الزهور الملساء التى يحط عليها . وعالم الحشرات وحده هو الذى يستطيع إدراك أوجه الشبه بينهما بالملاحظة الدقيقة .

فأمامنا مثال رائع لمرحلتين متميزتين من مراحل النمو تفصلهما فترة إعادة تنظيم واحة ، إذ لدينا مرحلة الودودة ومرحلة الفراشة ، وبينهما مرحلة الشرنقة التى يحدث الانتقال فى داخلها أما الكائنات البشرية فإن ما يطرأ عليها لا يكون بهذا الوضوح والتحديد ، لأن الرجال والنساء لا يمرون فى أى طور من أطوار نموهم بحالة سكون تام تشبه طور التشنق ، بل إن حياتهم تظل سائرة فى طريقها كما قد يستمر المتجر فى كثير من الأحيان فى ممارسة أعماله العادية أثناء الفترة التى يعيد فيها تنظيمه . ولذلك لا يكون من اليسير إدراك وجود فترة انتقال عند وقوعها .

ومع ذلك رأينا أن إعادة التنظيم فى المتجر قد جاءت فى أعقاب حالة

من الفوضى والاضطراب . فإن النظام الذى ظل مدة من الزمن وافيًا بالغرض منه قد أصبح لا يلائم ما استجد من الظروف . وإذا حاولنا الآن تطبيق ذلك على حياة الكائن البشرى لاحظنا أنه يعيش فى مكان معين ، فى محيط مجتمعه الإنسانى . وهو يستطيع أن يحيا فى هذا المجتمع كما يحيا سائر الأفراد إذا عرف كيف يسلك مسلكهم ، فإذا نقلناه إلى مجتمع آخر فإنه يحس الحرج والاضطراب . فالتقوى الذى ينزح إلى المدينة ، أو ساكن المدينة الذى ينتقل إلى الريف ليعيش فيه ، يجد أن عليه أن يغير من أسلوبه حياته الذى اعتاده وألفه ، أى لا بد له من أن يغير نوع عمله ، وطريقة استغلال وقت فراغه ، ومستويات راحته ، وغير ذلك . فعليه أن يتعلم أشياء كثيرة جديدة ، وأن يهمل أخرى قديمة كانت مألوفة لديه . وبمجرد أن يعتاد حياته الجديدة قدر اعتياده لحياته السابقة ، وليس قبل ذلك ، يشعر بالاطمئنان ، ويزول عنه ما كان قد اعتراه من قلق و برم واضطراب . أو بعبارة أخرى أن متاعبه لا تزول حتى يتمكن من أن يكيف نفسه للبيئة الجديدة .

ولكن ليس من الضرورى أن يكون تغير البيئة وحده هو الذى يقضى إلى اضطراب فى عملية التكيف ، فإن التغير قد يكون داخلياً ، كما يحدث عندما يجد الفرد أن ما كان يثير اهتمامه من الناس والأشياء قد أصبح غير مثير لهذا الاهتمام ، وأن ما كان يتعشقه من ضروب العمل غداً

تأفها في نظره ، وأن هواياته فقدت ما كان لها من جاذبية . ويستمر الحال على هذا المنوال حتى يكتشف ألواناً جديدة من الاهتمام والأصدقاء والهوايات والأعمال ، أى حتى يتكيف من جديد . ويستطيع كل راشد ، يشعر بنجاحه في حياته ورضاه عنها ، أن يعود بذكرياته إلى تلك الفترات التي كان يحس فيها بعدم الرضى أو الارتياح ، وذلك كي يتبين ما اضطر إلى عمله حتى تمكن من ملاءمة نفسه لهذه الحياة . فنحن جميعاً كائنات متغيرة ، نعيش في عالم متغير ، ونحتاج في كثير من الأحيان إلى إعادة التكيف حتى نحيا حياة ناجحة سعيدة .

ولنصرف النظر عما يحدث من تغييرات في العالم الخارجى وفي المجتمع الذى نعيش فيه ، ولنستعرض ما مر بنا من فترات كنا نحس فيها بالقلق وعدم الرضى عن حياتنا ، الأمر الذى يشير إلى فشل التكيف ، ويضطرنا إلى إعادة تنظيم قدراتنا الداخلية ، ولنسأل أنفسنا : هل كانت هذه الفترات خاصة بنا وحدنا أم أنها تحدث لجميع الكائنات البشرية في فترة النمو نفسها التى حدثت لنا فيها ؟ وعندئذ سنجد أن من خصائص الطبيعة البشرية أن تقدم الإنسان يضطرب مؤقتاً عند سن معينة تقريباً بسبب الإخفاق في التكيف للبيئة ، وما يصحب ذلك من قلق عقلى ، وعدم ارتياح نفسى ؛ وأن هذا التقدم يظل على تلك الحال من الاضطراب حتى يحدث تكيف جديد . وما دام الأمر كذلك فإننا نستطيع أن ننظر إلى حياتنا على أنها

سلسلة من مراحل النمو المنتظم التي يفصل بعضها عن بعض فترات من الاضطراب وإعادة التنظيم . ويمكننا أن نمثل لذلك بالشكل الآتي :



وقد يكون في وسعنا الآن أن نلخص المشكلة الحقيقية التي ستواجهنا في مناقشة موضوع المراهقة بالصورة الآتية : هل تفصل حياة البنت عن حياة المرأة ، وحياة الغلام عن حياة الرجل مرحلة نمو لها خصائص معينة ،

تبدأ بضرورة التكيف للحياة من جديد ، ونستمر على صورة نمو منتظم ، ثم تنتهى بظهور الحاجة مرة أخرى إلى تكيف جديد ؟ إذا كان هذا صحيحاً فإننا نستطيع عندئذ أن نتكلم عن مرحلة « المراهقة » .

لقد كان الذين يكتبون في موضوع المراهقة في الماضي يتكلمون عن حدوث تغيرات مسرحية مفاجئة في حياة الفرد ، ويصفون المراهقة بأنها الوقت التي تصبح حياة الناشئ فيه حافة بالعواصف العقلية والمتاعب ، مليئة بالآمال الخلابة واليأس القاتل ، وذلك عقب مرحلة الطفولة السعيدة الخالية من المسؤولية . هذا بلا شك عرض خيالي وليس عرضاً علمياً ، ولا يصدقه إلا من عاش في عصر تسيطر فيه على تفكيره شخصيات المؤلفات الرومانسية مثل فرتر ومانفرد وتشيلد هارولو . أما اليوم فقد انقلب الوضع ، وبلغ الأمر أقصى الطرف المقابل ، فأصبح من المؤلف أن يقلل الناس من قيمة التغيرات التي تصحب المراهقة ويصغرون من شأنها . ولكن قد يكون من الحكمة أن نشق لأنفسنا طريقاً وسطاً ، فنبحث عن الأسباب التي تفضي إلى ظهور هذه التغيرات ، وذلك في ضوء ما نعرفه عن التغيرات الجسمية التي تحدث للكائن الحي .